النظام الصوتي وتشكيل العلامة عند فردينان دي سوسير

د. حيدر محمد جبر
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

ملخص :

البحث يعرض قراءة لمقولات المنهج السوسيري الذي حاول فك الاشتباك والتداخل بين الأفكار والأصوات في ضوء مقاربة ابستمولوجية ورؤية مفكر سيوسولوجي لساني محددا أوجه العلاقة الرابطة بين وجهي العلامة اللغوية وعناصرها الحاضرة (دوالها) وعناصرها الغائبة (مدلولاتها). .. ويتناول الأسس التي تمثل محددات النظر المنهجي في دائرة النظم الصوتية للغات ، ويقف عند بعض التعارض المفهومي بين مقولات سوسير التي تحتاج الى تأمل وقراءة جديدة مثل التجريد الذي تمليه سايكلوجية الحدث اللغوي وما يرتبط به من أسس نظرية مثل الاعتباطية ، ولما كانت العلاقة بين اللغة والنظام عند فرديناند دي سوسير علاقة تظافر للعلامات في صورة نسقية معقدة فان مقولاته ركزت على دراسة الوحدة العلامية من خلال تحليل مرتكزاتها بأدوات منهجية تشخص العلاقات الداخلية لنظام اللغة أو العلامة وهو ما اصطلح عليه بالترابط السنتاكمي الذي يمنح عناصر الوحدة المنطوقة قيمتها التشكيلية من خلال التفاعل الوظيفي بين تلك العناصر في إطار آني متزامن.

Abstract:

The research displays read sayings the Saussure approach that tried to disengagement and the overlap between the ideas and sounds in the light of the epistemic approach and thinker Syoussologi vision tongue Association specific aspects of the relationship between both sides of the tag elements and language present (Signifiers), and missing elements (Signifieds). .. Deals with foundations that represent determinants of systematic circuit systems audio languages, standing at some discrepancy conceptual between categories Saussure that need reflection and a new reading such as abstraction, which is dictated by the Saiklogih event language and its associated foundations of the theory, such as arbitrary, and what was the relationship between language and the system when Ferdinand de Saussure relationship concerted of marks in the form of System complex van his statements focused on the study of the sign unit through the analysis of pivot tools systematically diagnosed relations, internal speaker system or mark which is termed in syntagme correlation which gives the elements of unity spoken worth Fine through interaction career between those elements in under synchronous present.

- **محدّدات النظام الصوتي:**

العلاقة بين اللغة والنظام في منظور فرديناند دي سوسير، علاقة تظافر وجودي للعلامات في أجلى صورها النسقية، ولم يتصور سوسير كيان اللغة بعيداً عن هذا [1]، حتى رأى أنّ عزل اللغة عن نظامها لا يجعلها سوى ((كتلة مرتبكة لا يدرك عناصرها الخاصة إلا الشخص النبيه الذي لـــه إلمـــامٌ بها))[2].

وتأسست رؤية سوسير في النظر إلى بنية اللغة النظاميّة على وفق تفكيك مرتكزات تلك البنية، ويتحقق ذلك لديه بأدوات برهانية تحاكي الفلسفة تجريدياً واستدلالاً، إذ يقول:

((إذا اردنا أن نبرهن على أن اللغة ليست إلا نظاماً للقيم، فما علينا إلا أن نتأمـــل عنـــصرين، يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها: وهما الأفكار والأصوات. إن تفكيرنا من الناحية السايكولوجية- إذا أغفلنا التعبير عنه بالكلمات- ما هو إلا كتلة غير متميزة لا شكل لها، وقد اتفق الفلاسفة وعلماء اللغـــة دائماً على أنه لولا الاشارات لما استطعنا أن نميز تمييزاً واضحاً ثابتاً بين فكرتين، فلولا اللغة أصبحت الفكرة شيئاً مبهماً غير واضح المعالم، إذ لا يوجد أفكار يسبق اللغة وجودها، ولا تتميز هـــذه الأفكـــار قبل ظهور اللغة))[3].

ولكي تكتمل الصورة يذكّر سوسير بأن ثمة جدلاً يكتنف منطقة التداخل السديمي بين الأفكـــار والأصوات ولعل هذا يدفع اللسانيين إلى حافة السؤال:

إذا كانت الأفكار تتسم بالتجريد الذهني العائم، فهل الأصوات تحمل ذلك التوصيف نفـــسه أو أنها تشترك مع الأفكار في شطرٍ منه؟

إنّ مثل هذه الأسئلة يبررها نزوع مؤسس اللسانيات فرديناند دي سوسير إلى تأكيد نوعٍ مـــن التحوّل المعرفي ، واجتراح خطاب لغوي جديد من خلال إعادة النظر في منجزات المنهجيّات اللغويّة التي اتجهت اتجاهاً تاريخياً عمودياً يجعل اللغة وليدة التطور الزمني.

إنّ هذا الاشتباك المعرفي بين الطروحات اللغوية يرينا فرقاً كبيراً بين أصحاب النظر إلى اللغة بوصفها كياناً سائحاً في فضاء الزمن ، وبين أصحاب الفلسفة اللسانية التي تهدف إلى تنميط المعرفـــة باللغويات، ومن هنا فإنّ المرتكز العميق الذي ينطلق منه سوسير في تأسيس مقولته عن العلاقة بـــين الأفكار والاصوات، لا يقلل من أهمية الطروحات السابقة، بل أسهم في تطويرها إسهاماً واضحاً، ولكي يعزز سوسير مقولاته في هذا الصدد، يطلق استنتاجاً مفاده ((أنّ المادة الصوتية ليست أكثر ثوبتـــاً ولا أشد تحديداً من الفكر، وهي ليست قالباً يصب فيه الفكر بالضرورة، بل هي مادة مرنة تنقسم في كـــل حالةٍ إلى أجزاء متميزة لتوفر الدال signifiers التي يحتاج إليها الفكر، وبـــذلك يمكـــن أن نتـــصور الحقيقة اللغوية في مجملها – أي اللغة – على أنّها سلسلة من التقسيمات المتجاورة التي حُدّدت علـــى

مستويين- المستوى غير المحدد للأفكار المكدسة (A) ومستوى الأصوات (B) الذي لا يقل عن الأول إبهاماً))[4] . ومن هنا فإنّ سوسير حين عمد إلى هذا التشخيص بشكل منهجي ناضج، أصبح أقدر على صنع التحولات في هذا الاتجاه المتطور، وتكاد مقولاته تكون أبرز أدوات التحليل في ميدان الربط الجدلي بين الفلسفة اللغوية linguistic philosophy ، واللسانيات الاجتماعية sociolinguistics ، كونها تنطلق من سياق تفصيلي نابع من دراية شاملة لكل المشكلات المعرفية التي تتداخل في الدراسة المعاصرة في للغة [5].

ولذا فقد بات ثابتاً فيما يخص ثنائية الأفكار (المفاهيم) وصورها الصوتية (الوحدات اللغوية) ((أنّ ما يُختزن من النظام اللغوي في الذاكرة، هو مجموعة من المفاهيم، وهي الوحدات اللغوية ، وذلك بالاضافة إلى معانيها المتمثلة في صورة مفاهيم أو قضايا... وعندما نتحدث أو نتلقى، فإننا نقوم باستخدام المفاهيم التي نعرفها حتى نستدل على القضايا (أي معاني التركيب)، وحتى نستدل أيضاً على التصنيفات الاجتماعية المحددة في شكل مفاهيم))[6].

ولا يترك سوسير هذا الوعي التنظيري معلقاً في الفراغ، بل يجعل تحققه ممكناً، ويعرض- في هذا الصدد- سبيلاً عملياً للوصول بهذا الوعي المنهجي إلى حقيقته- ونراه يختصر مجمل العلاقة بين الأصوات والأفكار التي تمثل معادلة اللغة، بقوله: ((فالفكرة المعينة تثير الصورة الصوتية التي ترتبط بها، وهذه الظاهرة السايكلولوجية تتبعها عملية فسلجية، إذ يرسل الدماغ إشارة مناسبة للصورة إلى الأعضاء المستعملة لإنتاج الأصوات، فتنتقل الموجات الصوتية من فم الشخص (أ) إلى أذن الشخص (ب)، وهذه عملية فيزياوية محضة، ثم تستمر الدائرة عند الشخص (ب)، ولكن بأسلوبٍ معكوس... ويتم في الدماغ الربط السايكولوجي بين الصورة والفكرة))[7]. وواضح أنّ سوسير قد نظر إلى تفاعلية هذه العلاقة السايكلوجية بين الفكرة والصورة الصوتية واستقرى مظاهر الاستجابة المتبادلة بين العنصرين، حتى عد اللغة نفسها محصلة نهائية لهما، بل إنها ذخيرة من الصور الصوتية [8]، وإنّ الربط بين هذين العنصرين يؤلف كيان الوحدة اللغوية، ويتحقق هذا الربط السايكولوجي في دماغ الإنسان بآصرة التداعي أو الإيحاء النفسي [9].

إن مقاربةً من هذا النوع، تعود بالضرورة إلى تفصيلات أكثر تغلغلاً على المستوى التجريدي النفسي، ومن هنا حلّل سوسير المسألة تحليلاً دقيقاً، فاستقصى الأثر النفسي الذي تتركه الأفكار على الصورة السايكلوجية التي تكون متأصلةً في في الذاكرة، ولخص ذلك بقوله: ((ولا يُقصد بالصورة الصوتية، الناحية الفيزياوية للصوت بل الصورة السايكلوجية للصوت، ... إن الطبيعة السايكلوجية للصورة الصوتية، تصبح واضحةً عند ملاحظتنا للساننا، فنحن نستطيع أن نتكلم إلى أنفسنا، أو نتلو في ذهننا قصيدة، من غير أن نحرك شفاهنا، ولما كنا نعد الكلمات الموجودة في لغتنا صوراً صوتية،

وجب أن نستخدم لفظة "الفونيما" التي تتألف منها الكلمات، فهذه اللفظة التي توحي بفعالية صـــوتية لا يصح استخدامها إلا عند الحديث عن الكلمة المنطوق بها، أي عند إخراج الصورة الداخلية الى الواقع في الحديث، ويمكن تجنب اللبس باستخدام أصوات الكلمة ومقاطعها شرط أن نتذكر أن الأسماء تـــشير إلى الصورة الصوتية))[10].

إنّ لجوء سوسير إلى المقاربة النفسية لتفسير ظاهرة اجتماعية مثل اللغة ناجم عن إداركـــه أنّ منهجية النظر اللساني، جزء من دائرة أشمل هي علم الاشارات أو العلامات semiolgy وهذا الأخير جزء من علم النفس الاجتماعي الذي هو ضمن علم النفس العام [11]، ولعلّ هذا الطابع التنافـــذي بـــين الحقلين يسوغ هذه المقاربات ويمنحها سمةً من سمات الاشتغال المنهجي، إذ بإمكان الباحث الاستعارة المعرفية من حقل علمي متاخم للتجربة المدروسة، وتوظيف أدواته توظيفاً يخدم النظرية المعروضة، وهنا لابد من الوقوف مع سوسير عند حدود هذه النقطة بوصفها أنموذجاً على مثل هذا الاشتغال الذي يدخل القارئ في مدخلة ابستمولوجية قد تحدث تقاطعاً نسبياً للمقولات، لأنّ توظيف مفردات التفكيـــر السايكلوجي في سياق النظرية اللغوية ينبغي أن لا يتجاوز حدود الاستثمار أو المجاورة، وهذا الملحظ بدا لافتاً للنظر فيما يتعلق بالطابع التجريدي الذي أكتنف المقولات السالفة، وهو ما يعـــارض بعـــض التصورات التي ثبتها سوسير في محاضراته إذ نص صراحة على أن لا وجود لشيءٍ تجريـــدي فـــي اللغة [12].

وإذا كان سوسير قد آثر مناقشة فلسفة نظام اللغة بأدوات سايكلوجية يسوغها العلاقة الرابطـــة بين اللسانيات والسيميولوجي، وعلاقة الأخير بعلم النفس العام، فإن ذلك فتح باب النقد عليه من اللساني الفرنسي أميل بنفينيست الذي رأى أن السيمولوجيا التي تمثل الجسر الرابط بين التفكير اللساني وعلـــم النفس ، لم تنشأ بعد– في تلك الحقبة– علماً راكزاً، حتى يعتمد عليه سوسير مرجعاً يمكن من خلالـــه تفسير ماهية العلامات اللغوية ونظامها [13].

وعلى أية حال، فإنّ دراسة اللغة لدى سوسير لم تعد عملية ذات طابع حدسي تشابه الدراسات التي قدمها التاريخيون ، بل صارت تمر بجملةٍ من المواضعات العلمية الفاحصة للمنجز الكلامي، ومن ثم لا يمكن الفصل فيها بين سايكولوجية الحدث وتمثلاته الخارجية [14].

إن هذه النزعة العلمية تؤشر طبيعة التوجه اللساني– وتكشف عن الانصراف العلمي الذي أخذ به الدراسون أنفسهم في التعامل مع اللغة والنظر إلى ظواهرها [15].

وربما تكون آراء سوسير الباكورة الأولى التي حددت المعالم الرئيسة لهذا الاتجاه، حين سجّل أن دراسة الأصوات هي الخطوة الأولى نحو معرفة الحقيقة، وبها تحـــرر علـــم اللغـــة مـــن الكلمـــة المكتوبة[16].

ولنا أن ننطلق من هذا المحور في الحديث عن (النظام الصوتي) الذي شغلت محدداته في محاضرات سوسير حيزاً ملحوظاً، كونه يأتي في سياق الاهتمام بالمعالجات الصوتية في حقل اللسانيات، وكذلك يمثل مؤشراً من مؤشرات هيمنة الخطاب العلمي الذي أنتجته الثورة التكنولوجيّة(17).

وإذا كانت الخطوات الأساسية لدراسة الأصوات تبدأ بالفوناتيك وتنتهي بالفونولوجي فإنّ سوسير حدّد رؤيته في هذا الموضوع، قائلاً: ((إن اعضاء النطق تقع خارج اللغة، أي لا صلة لها باللغة، كما إنّ الاجهزة الكهربائية المستخدمة في إرسال شفرة مورس تقع خارج الشفرة نفسها، (فهذه الاجهزة ليست جزءاً من الشفرة)، والعملية الصوتية أي إنتاج الصورة الصوتية لا تؤثر، في أي حال من الأحوال، في النظام نفسه، ويمكن تشبيه اللغة بالسمفونية من حيث إنّ السمفونية منفصلة تماماً عن طريقة الأداء، فالأخطاء التي يرتكبها الموسيقار في اثناء تأدية السمفونية تدعم هذه الحقيقة))(18).

وهذا التحديد ينطلق من زاوية المهمة التي يضطلع بها الباحث اللساني، وهي البحث عما يجعل اللغة نظاماً خاصاً له قوانينه التي تحكم معطياته الصوتية(19)، وعلى هذا الصعيد يحدد سوسير الأسس النظرية للاشتغال في دائرة النظم الصوتية للغات، وهذه الأسس تمثل محددات النظر المنهجي ، وهي الآتي(20):

- اللغة نظام يعتمد على التقابل العقلي للانطباعات السمعية.
- دراسة اللغات الحيّة تعتمد على تشخيص نظام الأصوات.
- كل لغة تعتمد في عملها على عدد محدود من الفونيمات.
- الانطباع السمعي أساس أية نظرية صوتية.

هذه الأسس تبدو متجانسة، ويمكن تقصي أبعاد النظرة الكلية التي تجمعها، ولعلّ الجامع بين أطرافها هو الأثر السمعي. ومن هذا تظهر أهمية التفسيرات الفنولوجية التي لا تغفل ذلك الأصل، ومن هنا فإنّ سوسير قد جاء بالخطوة الأساس التي يصح أن تنتظم بعدها الخطوات في طريق صحيح، إذ إنّ العلاقة بين الاصوات في الظاهرة اللغوية ليست علاقة ساكنة، بل هي علاقة ديناميكية تتجاذب فيها الوحدات الصوتية وتتدافع، وهذا ما عبر عنه سوسير بأن ((السلسلة الصوتية لا تنقسم إلى دقات إيقاعية متساوية، بل إلى دقات إيقاعية متجانسة تتصف كل دقةٍ beat بوحدة الانطباع، وهي نقطة الانطلاق الطبيعية للنظام الصوتي))(21).

وهكذا، فإن نقطة الشروع لدراسة الأنظمة الصوتية للغات تبدأ من تحليل السلاسل المنطوقة، والأصوات المتعاقبة التي تؤلفها على وفق علاقات داخلية، وإذا كان النظام الصوتي يعتمد على تجميع العناصر الصغرى المستعملة في الكلام. فإن ذلك يقود إلى تشكيل وحدات مقطعية تمثل الآصرة الحقيقة لنظام اللغة، ويعمد سوسير إلى تعليل ذلك بأن المقاطع تكون سهلة التشخيص على مستوى

التحليل الصوتي، كونها انطباعات سمعية تدركها الأذن [22]. وقد دلّ سوسير على فلسفته هذه بقولـه: ((إن علم الصوت الفونولوجي للمجموعات الصوتية يلقي كثيراً من الضوء على هـذه المـسألة، لأن أهتمامه الوحيد هو ربط المقاطع الفونيمية، ومع أن هذه ليست المسألة الوحيدة التي يستطيع هذا العلـم حلها، فهناك حقيقة واضحة ألا وهي: أننا لا نستطيع أن نتحدث عن مسألة الأصوات الصائتة sonant من دون أن نهتم اهتماماً كاملاً بالقوانين التي تتناول الربط بين الفونيمات))[23].

وعلى الرغم من أنّ القوانين التي تحكم تجميع الفونيمات ضمن الوحدات المقطعيـة تتفـاوت نسبياً بين اللغات ، فإنها تشترك بصفة عامة بالعملية الصوتية، وهي تعاقب ما اصطلح عليه سوسـير بالانفجار الداخلي والانفجار الخارجي، وهذا هو الأساس المعتمد في تقسيم السلـسلة الـصوتية إلـى مقاطع[24]، وفي كل ذلك لم يُخفَ وعي سوسير بضرورة الوصول إلى توظيف صيغة متطورة لتحليل متن اللغة، إذ يقول: ((إن تفسيرنا للمقاطع على أساس عمل الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي يؤدي بنا إلى ملاحظة مهمة، وهي تعميم لحقيقة معروفة في البحور الشعرية....، إنّ الانفجـار الخـارجي والانفجار الداخلي يختلفان في جوهرهما بقدر ما يتعلق الأمر بـالطول فالنفجـار الخـارجي سـريع لاتستطيع الأذن قياسه ولهذا السبب أيضاً لا ينتج عنه انطباع حركي، فالانفجار الداخلي وحده يمكـن قياسه، لذا نشعر وكأننا نستغرق مدة أطول في النطق بالحركة التي يبدأ بها الانفجار الداخلي))[25].

وهذا التفكير يمثل أحد معالم الاشتغال لدى سوسير الذي كان له اهتمام خاص بموسيقى الشعر، تجلّى بوضع نظرية في هذا الصدد، قد ضمنها كتابه غيـر المتـرجم (دروس فـي علـم العـروض الفرنسي)[26].

ومما يلاحظ أن هذا المشغل التحليلي للغة، لم يكن منبت الصلة عن روافده المعرفية، إذ أظهر سوسير تعاملاً واعياً بين اللغة والمحيط الثقافي الذي ينتمي إليه، بل نجح في أن يكون ظهـور هـذا التفكير المتفاعل ناشئاً في أفق طبيعي يغذي البحث اللغوي، ويمضي به في خط موصول تتفاعل فيـه العلاقات بين مستويات الظاهرة اللغوية .

تشكيل العلامة:

حيث يتجه منتج الشفرة اللغوية إلى تشكيل بنيته العلامية، فإنه يستحضر مفرداته الضاربة في عمق مرجعياتها الدلالية التي يكون لها أثر في ضخ إشارات تدعم التجربة اللغوية وبواعثها وأهدافها، ومن ثم كشف مكوناتها وتفكيك العلاقات القائمة بين عناصرها الحاضرة (دوالها) وعناصرها الغائبـة (مدلولاتها)[27].

وبمقاربة أبستمولوجية على هذا الصعيد، وضع فردينان دي سوسير فلسفة اللغة فـي سـياق جديد، كرست رؤية علمية تعتمد على جملةٍ من الفرضيات في دراسة الظاهرة اللغويـة واسـتقرائها،

وعلى الرغم من أن سوسير كان مسبوقاً بجهود الفيلولوجيين الذين أمعنوا النظر تاريخياً في اللغة ومشكلاتها، إلا أن إمعانهم بدا ذا منحى انطباعي يفتقر إلى أصول البحث العلمي، ناهيك عن ان مقارباتهم لم تكن ضمن مشروع متكامل الرؤية، وهو ما دفع سوسير إلى دراسة متن اللغة ضمن ما وضعه من محاضرات وبحوث، إذ يخرج متأمل تلك المحاضرات بتصورٍ شبه متكامل عن طبيعة اللغة بغض النظر عن قيمة الاختلاف مع آراء سوسير اللسانية.

إنّ العلامة في تجربة سوسير كانت مفهوماً رئيساً وقد ظهر هذا في أغلب ما تصدى إليه لدى مناقشته القضايا والاشكاليات اللسانية التي أعاد بناءها برؤية مفكّرٍ سوسيولوجي لساني شرع بتنضيد فلسفته من خلال إعادة النظر في مفهوم اللغة، وإعادة بناء مفهومها على وفق قراءة متأنية في الأفكار الأساسية للمنهج المعروض وخلفياته التي حدّدت منطلقاته، وماهية اتجاهه الذي تسلل من أرضية أكثر انتماءً للغة نفسها، ومن هنا سعى سوسير إلى تأصيل المعرفة باللغة من خلال نقده الأنماط المنهجية السابقة لظهور اللسانيات، ابتداءً من مرحلة القواعد ومروراً بالفيولوجيا وانتهاءً بالفيلولوجيا المقارنة. وتأمل مقولاتها التي ترى اللغة عملية تسمية للأشياء فحسب، وانتهى إلى عدِّ هذا الخطاب رؤية سطحية في كل مقارباتها المتراكمة بسبب التوظيف الآيدلوجي الذي كان يؤسس للمفاهيم والتصورات التاريخية التي حالت دون أجراء بحوثٍ تلامس حقيقة اللغة (28).

وفي ظل هذا التصور أمعن سوسير في هذه القراءات وسواها التي دارت في فضاء الخطاب التاريخي وانتجت قصوراً في فهم اللغة، وقدم رؤية تكرس نمطاً آخر من التفكير اللغوي ، وهو النظر إلى اللغة على أنها نظام من العلامات system of signs ، وكل علامة تمثل كياناً ثنائي المبنى تتكون من وجهين يشبهان وجهي العملة النقدية ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، الأول هو (الدال) أي الصورة الصوتية الحسية التي تحدثها في دماغ المستمع سلسلة الأصوات التي تلتقطها أذنُه، وتستدعي إلى ذهن المستمع صورة ذهنية أو فكرة أو مفهوماً أكثر تجريداً من الصورة الصوتية هو (المدلول) وكلاهما (الدال والمدلول) ((ذوا طبيعة سايكلوجية يتحدان في دماغ الإنسان بأصرة التداعي "الإيحاء"))(29) ، وللعلاقة بحسب سوسير صفة جوهرية ، هي اعتباطية العلاقة الرابطة بين وجهي العملة فيها، بمعنى أنها لا ترتبط بدافع وليس له صلة طبيعية بالمرجع الدلالي (30) .

ولعلنا بحاجة إلى شيءٍ من الأناة لتأمل خصيصة الاعتباطية التي عدها سوسير المفتاح المناسب لمغاليق اللغة، فها هو ذا ينص على أن ((الإشارة اللغوية اعتباطية، ففكرة (الأخت) sister لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الاصوات s-o-r التي تقوم بوظيفة الدال في اللغة الفرنسية، فهذه الفكرة يمكن التعبير عنها باستخدام أي تعاقب صوتي آخر))(31) .

وعلى وفق هذا المنطلق ، فإنّه لا شيء في اللغة يربط ربطاً منطقياً بين عناصرها على المستوى الظاهري الذي يشكل نسقاً منظّماً، وعلى الرغم من هذا الفهم فإنا يمكن أن نستشف تناقضاً في هذا السياق قادنا إليه نصّ آخر لسوسير مفاده أنّ ((الفكرة في اللغة ما هي إلا صفة من صفات المادة الصوتية...))[32] .

والواضح من هذا النص وما سبقه أن ثمة تعارضاً مفهومياً بينهما ربما يقوّض الإطلاق العام للنظرية الاعتباطية، لأنهما لا يأتيان في العرض على وفق نسق محكم، وهذا ما يجعل القارئ في موقف نسبي أمام هذه المقولة يصعب معه الخروج بقناعة تحسم قبولها أو رفضها .

وعلى الرغم من ذلك، فنحن لا نملك إزاء الرؤية الكلية التي قررها سوسير إلا أن نعترف بأنها ذات بعد علمي فتح من خلاله نافذةً للنظر السوسيولوجي في عملية بلورة العلاقة بين العلامات اللغوية ومعطياتها الاولية، وهذا ما يعضده سوسير بقوله إن العلامة ((لا تخضع لأي قانون سوى قانون العرف، ولما كانت تستند إلى العرف فهي اعتباطية))[33] .

ويتعاظم إصرار سوسير على جعل هذه الخصيصة منطلقاً لدراسة أي لغة، ولا يقع المنهج اللساني خارج هذا الاطار، بل ((إن كل شيءٍ يرتبط باللغة نظاماً ينبغي أن يدرس من وجهة نظر تحديد الاعتباطية، وقد أهمل اللغويون وجهة النظر هذه مدة طويلة من الزمن، إن هذه هي خير وسيلة لدراسة اللغة على أنها نظام بل إنّ النظام اللغوي بأجمعه يستند إلى هذا المبدأ غير المنطقي، وهو اعتباطية الاشارة))[34] .

ويكاد هذا الفهم السوسيري للاعتباطية وبعدها النظري، لا يبتعد كثيراً عما قرره بعض الفيلولوجين، وهذا ما تشي به نصوص في متن المحاضرات، ولعل أوفرها خطأً من الوضوح اشارة سوسير نفسه إلى أحد علماء الدرس الفيلولوجي المقارن وهو الامريكي William Dwight whiteny [35] ، بقوله: ((أراد وتني أن يؤكد أن اللغة نظام حقيقي، فركز بحق على الطبيعة الاعتباطية للإشارات، وبذلك وضع علم اللغة على أسس صحيحة، ولكنه لم يستمر في هذا الطريق إلى نهايته ليرى أن اعتباطية اللغة تفصلها جذرياً عن بقية النظم))[36] .

وبذا يتضح أنّ جهود الفيلولوجين تمخضت عن تهيئة الأرضية التي انطلق منها اللسانيون لتحديد فهم اللغة، ومن هنا فإنّ الظاهرة في الأصل ليست من اجتهاد المنهج السوسيري، بل اجتهاد الخلفيات الفكرية التي ترفده، ولهذا تساوى أصحاب هذه المناهج في التشخيص وأن اختلفوا في طبيعة التعبير عن الظاهرة نفسها .

إن هذا التماس في نقطة معينة بين المتن اللساني والفيلولوجي، لا يسقط –في نظرنا– خصوصية كل منهج، ولا يلغي التباين الإجرائي بينهما، ومن منطلق أن الحقل اللساني

يتوافر على خصائص تجعله مستقلاً في ميدان الدراسات اللغوية، فإن سوسير لم يـر فـي المنحـى التاريخي مخرجاً لحل إشكالية اللغة ، بل رأى أن تحليلها وتحديد خصائصها الكلية لا يكون عن طريق مقارنتها ببعضها .

وبهذا المنظور تتجلى الزاوية المحددة لقراءة التشكلات العلامية لدى سوسـير الـذي رأى أن النظر إلى اللغة على أنها إشارات معزولة يسجل قصور القراءات العامة للغة، نظراً لافتقارهـا إلـى مرتكز نظري دقيق .

وإذا سلمنا بمقولة سوسير بأننا ((لا نتفاهم باستخدام إشارات فردية معزولـة، بـل باسـتخدام مجموعات من الإشارات ، أو كتل منتظمة هي في حد ذاتها إشارات.))[37] ، فإنّ اللغة يمكن أن تعـد وحدة علامية كبرى، وأنّ الفروق الصوتية والفكرية ترسم ملامح تلك الوحدة، وأنه لا يوجد في اللغـة سوى الفروق الناتجة عن نظام اللغة نفسها [38] .

وفي فلك هذا الخطاب، استنتج بنيويو مدرسة براغ أن القدرة التفاعلية للغة تذوب في متاهات العزلة الأحادية للأفكار والأصوات، بل إنّ العلاقة بينهما تقود إلى الاستنتاج المنطقي بأن ثمـة نـسقاً هرمياً يتأسس عليه مجمل النظام اللغوي [39]، ذلك أنّ اللغة عمل مركب تتفاعل أجزاؤه لتؤلّف ملامح خاصة بهذا التركيب يجعلها إشارات تمتاز من العناصر المكونة لها، وقد شبه سوسير عملية التركيب هذه بمثال من علم الكيمياء ، إذ إن ((كثيراً ما شُبِّهت الوحدة اللغوية الثنائية بالكائن البشري الذي يتألف من الجسم والروح، ولكن هذا التشبيه غير مقنع، وأفضل منه التشبيه بالمركـب الكيميـائي كالمـاء، التركيب المؤلف من الهايدروجين والاكسجين، فإذا اخذنا اياً من العنصرين لم نجد له أية صـفة مـن صفات الماء))[40] .

وقد يرد اعتراض على هذا التمثيل بأنّ العناصر الأولية في هذا المثال تفقد خصائـصها فـي التركيب، في حين إنّ عناصر العلامة اللغوية تحتفظ ببعض خصائص مكوناتها، إلا إنّ ذلك التقريـب التمثيلي مفيدٌ على نحو عام، لأنه يحكم بأن عملية التشكل العلامي تمنح أبعاداً جديدة للعناصر اللغويـة تختلف عما هي عليه حين تكون معزولة قبل تركيبها .

ولما كان التعالق بين مكونات العلامة اللغوية يمنح وظائف جديدة لعناصرها، فإنّ دراسة بناء الوحدة العلامية لا يمكن أن تنطلق من فهم خصائص العناصر المكونة لها معزولـة، وإنمـا ينبغـي دراستها في ضوء ارتباطها بالعناصر الاخرى، وارتباطها كلها بالنظام الذي دخلت فيه والـذي يمثـل بناءها الكلي الذي يصهر هذه العناصر في وحدة نظامية شاملة [41] .

وإذا كان متعذراً إمكانية الحديث عن قانون يجمع مكونات الواقعة اللغوية ويضبط ايقاعها [42]، فإنّ ذلك لا يمنع من تنميط العلاقات الداخلية لنظامها، ومن هذا يظهر أن سوسير شّخص الآصرة التي

تجمع مكونات العلامة أو الحالة اللغوية، وهو ما أصطلح عليه بالترابط الـسنتاكمي، وهـو ترتيـب العناصر بصورة متعاقبة في السلسلة الكلامية، ويتألف من وحدتين أو أكثر، ويكتسب كل عنصر قيمته في السنتاكم من خلال التقابل مع ما يسبقه أو يلحقه، أو اجتماعها في إطارٍ آني متزامن [43] .

ولهذا كان من المهم لدى سوسير تأكيد أنّ دراسة الحالة اللغوية واكتناه عمقها المترابط ومعرفة ابعاده ، هو ذلك الاشتغال على معرفة العلاقات التي تربط كل عنصر من عناصر العلامـة بتركيبهـا اللغوي، ومن هذه الجهة يأتي بحث موضوع العلاقات التي صنفها على نـوعين: علاقـات إيحائيـة وعلاقات سنتاكمية، أما الأولى فميدانها الدماغ ، وهي ((جزء من الذخيرة الداخلية للغة التي يملكهـا كل متكلم.))[44] ، في حين إن الصنف الثاني يعتمد على عنصرين أو أكثر ينتظمها سلسلة خطية [45] .

إن هذا الحدث الداخلي المنتج للعلاقات المشار إليها، ليس تأثراً عابراً بـل اسـتجابة ذهنيـة، وادراك واعٍ لكل مؤثر من مؤثرات الحدث العلامي الذي يجعل القابلية الفردية للمـتكلم تجمـع بـين الصورة الصوتية والأفكار معاً ، ((فالعقل يدرك طبيعة العلاقات التي تربط بين هذه العناصر، ثم يخلق عدداً من المجاميع الإيحائية، يساوي عدد العلاقات المتنوعة الموجودة بين العناصر... إن السنتاكم يدل دائماً على نظام من التعاقب وعلى عدد ثابت من العناصر، أما العناصر في المجموعة الإيحائية ، فهي لا تقع في نظام ثابت أو عدد ثابت، فإذا ربطنا إيحائياً بين Poinfil و Delightful و Frighrful، فإننا لا نستطيع التنبؤ بعدد الكلمات التي توحي بها الذاكرة أو النظام الذي تظهر فيه هـذه الكلمـات، فالكلمة تشبه المركز في مجموعة فلكية ، يلتقي فيها عدد غير محدود من العناصر المتشابهة))[46] .

وواضح أن هذا التداعي أو التسلسل ما هو إلا ضرب من العمليات العقلية، وتأسيساً على هذا الفهم فإنّ نظام تشكيل العلامة يستند إلى ذخيرة تحركها ملكة إنشاء اللغة، ((إذ تحتفظ ذاكرتنا بـذخيرة احتياطية من جميع الانماط المعقدة للسنتاكم، مهما كان صنفها أو طولها، ثم نستعين بالمجاميع الإيحائية لنختار منها حين يحل وقت الاستعمال))[47] .

وفي ضوء هذا ينبغي التذكير بأنّ مقولة العناصر وعلاقاتها التي تتشكل على أساسها العلامـة اللغوية، نجد صداها في المدرسة التوليدية التحويلية بزعامة تشوميلكي الذي عـدّ ((اللغـة مجموعـة (محدودة أو غير محدودة) من الجمل، كل جملة فيها محدودة في طولها، وقد انـشئت مـن مجموعـة محدودة من العناصر))[48].

وهذا ما يجعل تشومسكي في هذا الأساس النظري على مقربة مما اشـتغل عليـه سوسـير، ولاسيما إذا أضفنا إلى ذلك مقولة الاعتباطية وقضية التفريق بين القابلية والأداء التي صرح بأنها قريبة من ثنائية سوسير (اللغة والكلام)[49] .

وفي نظرنا فإن هذا لا يوجد تقاطعاً جوهرياً بين النظريتين، إلا في بعض المصطلحات والفرضيات التي انطلق منها رائدا اللسانيات الحديثة، ولعل سبق معالجة سوسير لقضايا اللغة من الناحية الزمنية لطروحات تشومسكي يجعلني أظن أنّ الأخير اطلع قراءة وبحثاً على متن محاضرات سوسير اطلاعاً وافياً ، وهذا ما يشجعني على الوقوف على الأسس والمقولات المشتركة بين الرجلين وتأملها في بحث مستقل .

الهوامش :

---

(1) ينظر : علم اللغة العام: 122.

(2) علم اللغة العام: 123.

(3) علم اللغة العام: 131.

(4) علم اللغة العام: 131.

(5) ينظر : علم اللغة الاجتماعي: 7، ومعجم اللغة واللسانيات: 369، ومعجم المصطلحات اللسانية: 309، ومعجم اللسانيات الحديثة: 131.

(6) علم اللغة الاجتماعي: 147.

(7) علم اللغة العام: 30.

(8) ينظر : علم اللغة العام: 34.

(9) ينظر : علم اللغة العام:84.

(10) ينظر : علم اللغة العام: 85.

(11) ينظر : علم اللغة العام: 34.

(12) ينظر : علم اللغة العام: 144.

(13) ينظر : مدخل إلى السيميوطيقا: 176.

(14) ينظر : علم اللغة العام: 188، والقراءة النسقية: 63، وفي اللغة والمعرفة اللغوية: 17.

(15) ينظر : الاتجاهات الأساسية في علم اللغة: 16، 17.

(16) ينظر : علم اللغة العام: 51.

(17) ينظر : المنظومة الكلامية: 187، 188، وتكنلوجيا اللغة والتراث العربي اللغوي الاصلي: 97، 98، ومنهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري: 11.

(18) علم اللغة العام: 37.

(19) ينظر : علم اللغة العام: 34.

(20) ينظر : علم اللغة العام: 52، 53، 55.

(21) ينظر : علم اللغة العام: 57.

(22) ينظر : علم اللغة العام: 44، 68، 76، 26.

(23) ينظر : علم اللغة العام: 69، 70.

(24)ينظر : علم اللغة العام: 77.

(25)ينظر : علم اللغة العام: 78.

(26)ينظر : البحث عن فردينان دو سوسير: 19، 38.

(27)ينظر : اللغة واللغويات، 74، 75. وعلم اللغة السيميائي والادب المروي: 93.

(28)ينظر : علم اللغة العام: 19، 35، 133.

(29) علم اللغة العام: 84 .

(30) ينظر: علم اللغة العام: 86، 87، 88 .

(31)علم اللغة العام: 87 .

(32)علم اللغة العام: 122 ،

(33)علم اللغة العام: 92 .

(34)علم اللغة العام: 152 .

(35) تنظر ترجمته في: علم اللغة في القرن العشرين: 13 .

(36) علم اللغة العام : 94.

(37)علم اللغة العام: 147 .

(38) ينظر: علم اللغة العام: 139 .

(39) ينظر: افكار واراء حول اللسانيات والادب: 100 .

(40)علم اللغة العام: 122 .

(41) ينظر: علم اللغة العام: 148 .

(42) ينظر: علم اللغة العام: 109 .

(43) ينظر: علم اللغة العام: 19 .

(44) علم اللغة العام: 142 .

(45) ينظر: علم اللغة العام: 143 .

(46)علم اللغة العام: 144، 145 .

(47)علم اللغة العام: 149 .

(48) النحو النحوية: 17 .

(49) ينظر: البنى النحوية: 19، وجوانب من نظرية النحو: 28 .

المصادر :

- الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، رومان ياكوبسون، ترجمة: علي حاكم، وحسن ناظم، بيروت، 2002م.
- أفكار وآراء حول اللسانيات والادب، رومان ياكوبسون، ترجمة: فالح صدام، الامارة، وعبد الجبار محمد علي، بغداد، 1990م .
- البحث عن فردينان دوسوسير، ميشال أرّيفيه ، ترجمة: محمد خير محمود البقاعي، بيروت 2009م .
- البنى النحوية، تشومسكي ، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز ، بغداد ، 1987م.
- تكنلوجيا اللغة والتراث العربي اللغوي الاصيل، عبد الرحمن الحاج صالح، بحث في كتاب : الموسم الثقافي الثاني لمجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1984م .
- جوانب من نظرية النحو، تشومسكي، ترجمة: مرتضى جواد باقر، العراق د.ت .
- علم اللغة الاجتماعي، د. هدسن، ترجمة: محمود عبد الغني عياد، بغداد، 1987م .
- علم اللغة العام، فردينان دي سوسور، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، بغداد، 1985م .
- علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة: نجيب غزاوي، دمشق، د. ت .
- علم اللغة السيميائي والأدب المروي: William o. hendrick ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، ونوزاد حسن أحمد ، بيروت، 2010م .
- في اللغة والمعرفة اللغوية، نيكي هيس، ترجمة: ضياء الجصاني، بغداد، 2007م .
- القراءة النسقية ، أحمد يوسف، بيروت، 2007م .
- اللغة واللغويات ، جون لوينز، ترجمة: محمد العناني، عمان، 2009م .
- مدخل إلى السيميوطيقا، سيزا قاسم ونصر حامد ابو زيد، القاهرة، د.ت .
- معجم اللسانيات الحديثة، سامي عياد حنا، بيروت، 1997م .
- معجم اللغة واللسانيات ، هارتمان وستورك، ترجمة: توفيق عزيز عبد الله وآخران ، بغداد، 2012م .
- معجم المصطلحات اللسانية، عبد القادر الفاسي الفهري، بيروت، د. ت .

- المنظومة الكلامية ، بيترب. دنس، اليوت نبشن، ترجمة: محي الدين حميدي، بيروت، 1991م .
- منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري، قاسم البريسم، لندن 2000م.